وقفة حوار مع
المستشرق ماك دونالد

د. التجيني بن عيسى

جامعة تلمسان

يعدّ دنكن بلاك ماكدونالد (D. B. Mac Donald) من أبرز رواد الفكر الاستشراقي.لقد صرف هذا الباحث قسطا كبيرا من حياته للحفاظ على هذه الحركة وتطوير مبادئها وأهدافها، وشارك مع آخرين في نشر أبحاثها وآرائها. كان تلميذا ثمّ صديقا لنيكولسن (Nickolson). ودرس في جلاسكو (Glascow) ثمّ رحل إلى برلين (1890) حيث تلقّى اللغات الشرقية على زاخاو (Sachau)، مؤسّس معهد اللغات الشرقية في برلين (1882). ثمّ قصد هارنفورد لتعليم اللغات السّامية (1893) وأسّس فيها – بعد طواف في الشرق الأدنى (1908/1907) – مدرسة كندي للبعثات (1911). كما أشرف على القسم الإسلامي مدّة سنوات طويلة وأنشأ بمعاونة سارتون (Sarton)، مجلّة إيزيس (1913) (1).

إنّ ماكدونالد يعرف بكتاباته حول الإسلام والقرآن الكريم، وبمحاولته تقريب المسيحية للمسلمين. وله من المؤلّفات على وجه الخصوص " كتاب الإله : وحدة أم اتّحاد " في الفقه الإسلامي (1913)، و "ما هو الإسلام ؟ " (1933) ومؤلّفات أخرى حول الشـــعر والنثر والفلسفة والتصوّف والعلوم اللهجات وغيـــرها (2).

غير أنّ الذي يهمّنا من هذه الكتابات، هو ما كتبه في دائرة المعارف الإسلامية في مقالين، أحدهما خاصّ باسم الجلالة " الله " وثانيهما عرّف فيه " بعلا ". وهما مقالان أقلّ ما يكمن أن يقال عنهما أنّهما خطيران، لا بالنسبة للإسلام والمسلمين، ولكن بالنّظر إلى ما يتطلّبه البحث العلمي النّزيه والتفكير المعرفي المنصف. والواضح أنّ الخطورة التي يكتسيها المقال الأوّل على وجه الخصوص لا تمسّ الفرد المسلم المؤمن لا من بعيد ولا من قريب، وإنّما

هي ضرر على أبناء جلدة هذا المستشرق أنفسهم لما أحاط بهذا المقال من تشويه للحقّ ومجانبة للبحث العلمي الصّرف وابتعاد عن أمانة الضّمير. الأمر الذي يجعل أبناء موطنه لا يرون الحقّ ولا يتمسّكون بالحقيقة، بل لقد حاول أن يرسّخ من خلال هذا المقال صورا ومفاهيم مشوّهة وزائفة ومقصودة في أذهانهم وعقولهم.

ولعلّ أوّل أمر يؤخذ على هذا المستشرق، جهله الفادح باللغة العربية وتصاريفها واشتقاقاتها ودلالاتها. فهو في ذلك قلق يعوزه الفصل بين الرّأي والرّأي الآخر رغم ما حصل عليه من علوم ومعارف في اللغات الشرقية والسّامية. ومن أجل ذلك، نراه متردّدا في الحكم على اشتقاق اسم الجلالة " الله " قائلا : " في هذا الكلمـــة، إمّا أن تكون من أصل عربي صحيـــح وإمّا أن تكون آرامية الأصـــل مشتقّة من كلمة (ألاها) ومعناه الله (3).

والجدير بالملاحظة أنّ القاعدة الأولى التي وضعها المستشرقون وتمسّكوا بها مدّة تأليفهم وخلال ازدهار حركتهم، إنّما تدعو إلى ربط مفردات القرآن الكريم بغيرها من اللغات السّامية أو الهندية الأوروبية، وخاصّة بتركيزهم على ما ورد في نصوص التوراة، وذلك كلّه بهدف قطع كلّ صلة بينها وبين الأصل العربي التي تفرّعت عنه. وهي قاعدة مطّردة لم يحد عنها سوى القلّة القليلة من الباحثين الذين أنصفوا التّراث العربي الإسلامي ولغته وحضارته ومقوّماته، فاستحقّوا بذلك كلّ التقدير والاحترام.

والحقيقة انّ تردّد ماكدونالد في الحك على اشتقاق اسم الجلالة " الله " لم يكن نتيجة ذلك الجهل الذي أشرنا إليه فحسب، وإنّما أملته عليه أيضا الرؤية الفكرية الدّينية التي منعته من ذكر الحقائق والإنصاف في الخوض في هذا الموضوع. هذه الرؤية تتمثّل فيما عرضه كتاب (الحقّ الذي يقود إلى الحياة الأبدية) المنشور في الولايات المتّحدة الأمريكية عام 1968، والذي جاء فيه :

" ولكي يميّز الإله الحقيقي نفسه عن الآلهة الباطلة العديدة، أعطى نفسه اسما شخصيا. وهذا الاسم يفرزه عن كلّ الآخرين. وربّ سائل يقول : أليس اسمه " الله " ؟، كلاّ، لأنّ كلمة " الله " هي مجرّد لقب، تماما كما أنّ كلمة " رئيس " و" ملك " و" قاض " عي أيضا

لقب. وكلمة " الله " – الكتاب المقدّس – تكشف لنا اسمه الشخصـــي وهذا الاسم هوَ " يهوه " (4).

ونردّ على من ادّعى مثل هذا الادّعاء أنّ لفظ الجلالة يجري في الدّلالة على معناه مجرى الأعلام، فهو يدلّ على تعيين مسمّاه (جلّ شأنه)، تعيينا مطلقا غير مقيّد بقرينة. فوضع مدلوله لأنّ وضوحه ذاتي، وهو مقصور على ذات الله عزّ وجلّ. وكلّ ما ذكر في اشتقاقه وتصريفه وترجمته مضاربات لغوية باطلة لا أساس لها.

ومن الواضح أنّ مثل هذه الادّعاءات هي مجرّد تخمينات لسانية لا أكثر ولا أقلّ، لأنّها أوقعت ماك دوانالد وأمثاله في تناقضات جسيمة. من ذلك أنّهم أثبتوا لفظ الجلالة (الله) في أوّل حديث لهم في توراتهم. وهو كما يلي : " في البدء، خلق اللغة السّماوات والأرض "(5). فلو كان " يهوه " هو الاسم الذي فضّلوه، وهو الاسم الشخصي لله عزّ وعلا، ما ترجموه بـــ (الله) ولا أثبتوه على لفظه الأصلي، خاصّة وأنّهم استخدموه لأوّل مرّة في أوّل حديث من كتابهم.

ونعتقد أنّ هذا الادّعاء تولّد من جرّاء قراءاتهم لمفهوم لفظ الجلالة عند علماء اللغة المسلمين، حين نبّهوا عن الخطأ الذي وقع فيه غيرهم في تأصيل هذه اللفظة. جاء في تاج العروس : " قال الليث : بلغنا أن اسم الله الأكبر هو الله لا إله إلاّ هو وحده. قلت : وهو قول أكثر العارفين. فلم يتحمّلوا عبارة " اسم الله الأكبر "، فزعموا أنّ لفظ الجلالة صفة وليس اسما (6).

ويرى ماك دونالد أنّه من غير المهمّ أن يفصح عمّا إذا كان " الاله " في نظر عرب الجاهلية يمثّل فكرة مجرّدة، أم أنّه كان يمثّل تدرّجهم في تصوّر إله معيّن مثل هبل (7).

ومن الإنصاف العلمي ألاّ نغضّ الطّرف عن الذكاء الماكر الذي يتّصف به هذا المستشرق في قوله هذا، لأنّ نفي الاهتمام بالأمر يدلّ دلالة واضحة على رغبة ملحّة في الاهتمام به. وقد تبيّن أنّ العرب في جاهليتهم لم يختلفوا عن الشعوب الأخرى التي سبقتهم أو عاصرتهم. ففكّروا في وجود قوى عليا لها عليهم حكم وسلطان، فحاولوا كلما حاول غيرهم

التقرّب منها واسترضاءها بمختلف الوسائل والطّرق، ووضعوا لها أسماء وصفات، وخاطبوها بألسنتهم وبقلوبهم. سلكوا في ذلك جملة مسالك (8).

أمّا هبل الذي يتحدّث عنه ماك دونالد، والذي استلهم طبيعته ووظائفه من كتاب فالهاوسن (Wellhausen) (Reste arabischen heidentums. P. 117)، ومن كتاب نولدكه (العرب في الجاهلية)، فليس بإله وليس نموذجا لتدرّج العرب في تصوّرهم لإله له معيّن كما زعم. إنّ الله سبحانه وتعالى في الكتب التي أنزلها على رسله هو فاطر السماوات والأرض، وهو خالق كلّ شيء، وإليه تردّ الأمور جميعها. أمّ هبل، فهو صنم من أصنام قريش، صنعوه بأيديهم ووضعوه في جوف الكعبة وحولها. ومعلوم أنّه كان من عقيق أحمر على صورة إنسان، مكسور اليد اليمنى، أدركته قريش فجعلت له يدا من ذهب. وكان أوّل من نصبه خزامة بن مدركة بن إلياس بن مضر... (9). وجاء في مجمع البيان أنّه لا خلاف بين أهل الأخبار في أنّ (هبل) كان على هيئة إنسان رجل (10).

والجدير بالذكر أنّ ماك دونالد قد اتّبع سبل الاستشراق في هذا الأمر، إذ لم ينفرد لوحده بهذا الرأي، وإنّما توافق معه جروهمان (Grohman) الذي كان أستاذ الثقافة الإسلامية واللغات السامية بجامعة براغ وكرسي التّاريخ الإسلامي في جامعة القاهرة (1954)، الذي رأى بأنّ هبل هو رمز إلى الله (القمر)، وهو إله الكعبة، وهو الله عند الجاهليين (11). وكذلك رينيه كاليسكي (R. Kalisky) الذي ذهب إلى أنّ ديانة العرب في جاهليتهم ارتكزت على فكرة الإله، وأنّ اسم " الله " كان معروفا في تلك الآونة. وقد وضع المكّيون " الله " فوق كافّة الآلهة الأخرى، واعترفوا بأنّه سيّد المعبد، أي سيّد الكعبة، وذلك في القرن السابع الميلادي (12).

إنّنا نعتقد بأنّ ماك دونلد وأمثاله لم ينسلخوا كلّيا عن ثقافتهم المسيحية رغم اكتسابهم للثقافة العربية الإسلامية وتثقيفهم باللغات الشرقية عموما وتعلّمهم للغات السامية بوجه خاصّ. فقد حاولوا في نظرنا أن يحملوا فكرة التصوّر عند المسيحية إلى أرض العرب. إذ المعروف أنّ التصوير الخيالي كان معروفا ومنتشرا في الأوساط المسيحية المختلفة. وقد وجدت

صور وتماثيل في الكنائس منذ العهود الأولى للمسيحية، على أنّ هذا الاستعمال لم يكن شائعا ولا مستخدما في الكنيسة طوال القرون الثلاثة الأولى من ظهور الدّيانة المسيحية. ثمّ تدرّج ذلك الاستعمال ليصبح جائزا ومحمودا في كلّ الأمصار. وقد تركّز هذا التصوير وتنصيب التماثيل على إظهار المسيح (عليه السّلام) ومريم والملائكة والحواريين.

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ التصوير والتخيّل انتشرا انتشارا كبيرا في العهد الرّوماني، لميل هؤلاء الشعوب إلى تشييد البنايات الفاخرة والعمران والتفنّن فيه. ويكن القول إنّ الرومان هم الذين طوّروا هذا الجانب، في حين رفض كلّ من ترتيليان (Tertullien) والقدّيس أوغستين (St. Augustin) والقديس كليمونت الأسكندري (St. Clément d'Alexandrie) الرّضوخ إلى استعمال هذا التصوير عبر كلّ مناطق شمال إفريقيا. وأغلب الظنّ أنّ ذلك راجع إلى العقلية السّامية التي قد لا تميل إلى ذلك (13).

إنّ الحفريات والتنقيبات التي قام بها المستغربون الإستعمارن فور دخولهم إلى شمال إفراقيا عموما والجزائر وتونس خصوصا تصبّ كلّها في هذا المنحى. وهو ربط دعوات الاستعمار والتغريب بالماضي الاستعماري الرّوماني البعيد، لكي تقتلع الشعوب من مقوّماتها وجذورها.

ولو كان ماك دونالد وغيره منصفا حقّا، يتوخّى الصّدق فيما يقوله والأمانة الأمانة فيما بكتبه لاكتفى بمدلول ما قاله النبيّ الأمّيّ حين أراد الانصراف من أحد. فعلا صوت أبي سفيان : أعل هبل، أعل هبل. فقال النبي لعمر : أجبه. قال : ما أقول لهم ؟ قال : الله أعلى وأجلّ، فقال : لنا العزّى ولا عزّى لكم. فقال النبي لعمر : قـــل : الله مولانا ولا مولى لكـــم (14).

وحاول ماك دونالد تأييد فكرته هذه بإيراد آيات قرآنية اتّخذها شواهد على تصوّر أهل مكّة لله عزّ وجلّ.فقتل : فقد جاء فيه (أي في القرآن الكريم) أنّهم كانوا يقولون إنّ الله هو الخالق الرّازق مستشهدا بما جاء في الآية الكريمة 17 من سورة الرّعد والآية 61 و63 من سورة العنكبوت والآية 24 من سورة لقمان والآية 38 من السورة الزمر والآية 8 والآية 87 من سورة الزخرف، على أنّ أهل مكّة كانوا يؤكّدون بأنّ الله هو الذي ينزل من السّماء ماء

وكانوا يجارون إلى الله إذا مسّهم الضرّ، كما كانوا يعترفون بالله ويقسمون جهد أيمانهم. ويجعلون له نصيبا من الحرث والأنعام مميّزا عن أنصبة الآلهة الأخرى. وكالوا يقولون إنّ الله لم يحرم عليهم قطّ أن يشركوا به. ويقولون كذلك بوجود آلهة أخرى تخضع لله انصرفوا إلى عبادتها في حميّة وحماسة.

ولسنا ندري إذا كان ماك دونالد قد رجع إلى القرآن الكريم لاستنباط هذا العدد من الآيات، أم إنّه ويرى الأستاذ أحمد محمّد شاكر في تعليقه على هذه المسألة أنّ من يقرأ مقال ماك دونالد يبدو له أنّ كاتبه لم يطّلع على الآيات القرآنية التي فيها أسماء الله وصفاته. وإنّما أخذ أرقامها من الفهارس فقط. أو لعلّه قرأها ويتدبّرها و لم يفقه معانيها.عوّل على كتب تفصيل آيات القرآن الكريم التي ألّفها مستشرقون آخرون من مصل غوستاف لوبون (G. Lebon) وغيره. ولكنّ المؤكّد أنّ الآيات التي استشهد بها هذا الكاتب متّصلة المعنى، مطردة السياق في مكانها من سورها. ويظهر أنّه حين ارتأى هذا الرأي، لم يكن قد استوعب معاني الآيات وأدرك دلالاتها.

وقد يكون له في هذا شيء من العذر، فإنّه يقرأ في لغة لم يتقنها و لم يمرّن عليها لسانه ولا تفكيره. فلا يصل إلى شيء من أسرار معانيها وبلاغتها، أضف إلى ذلك سموّ القرآن في عباراته إلى أعلى درجات البلاغة والإعجاز، ممّا كان سببا في اختلاف كثير من علماء الإسلام وأهل اللغة وأبناء العربية. وظاهرة أخرى نشير إليها إشارة سريعة على مضض، وهي أنّ روح المقال (الذي وردت فيه هذه المسائل) يشعر منه القارئ بأنّ الكاتب لا يؤمن بالله ولا بشيء من صفاته المعروفة لأرباب الأديان السماوية، فهو ينتقد كثيرا عقائد المسلمين التي تتّفق مع عقائد اليهود والنصارى في صفات الله سبحانه وتعالى بعبارات فيها ألوان من التلاعب بالأفهام والعقول...(15).

ثمّ يصدر الأستاذ أحمد محمّد شاكر حكما منصفا على ما ذهب إليه هذا المستشرق، فيرى أنّ هذا الأخير قد تورّط تورّطا ألجأه إليه عدم وقوفه على مذاهب العرب وديانتها في الجاهلية، واعتقاده أنّ أهل مكّة خاصّة كانوا على عقيدة واحدة عبّر عنها بقوله : إنّها أشبه

بالعقيدة المسيحية التي جعلت للقدّيسين والملائكة مقاما بين الله وعباده. وحقيقة الواقع أنّ أهل مكّة كبقية العرب كانوا مختلفين في الدّين والعقيدة. وقد تكفّل القرآن ببيان عقائدهم المختلفة في آيات متفرّقة، فتراءى للكاتب أنّ القرآن يعبّر عن عقيدة واحدة، ومن ثمّ أخذ ينْسب بغير حقّ لبعض الآيات التناقض الاضطراب (16).

وإذا كنّا متّفقين مع جلّ ما قاله الأستاذ شاكر في هذا الردّ الجامع، فإنّنا على غير اتّفاق معه في العذر الذي التمسه لهذا المستشرق، لأنّ ماك دونالد ينتمي إلى تلك الطّائفة الاستشراقية التي عملت على إصدار مجلّة العالم الإسلامي الإنجليزية عام 1911، والتي كان يديرها آنذاك القسّيس زويمر، رئيس إرسالية البحرين. وقد استهلّ عددها الأوّل بما يلي: " تبيّن لنا من مراجعة مجلّة العالم الإسلامي الفرنساوية ومجلّة الإسلام الألمانية ومن دائرة المعارف الإسلامية الجديدة المحرّرة بثلاث لغات أنّ زيادة العناية والاهتمام بأمر الإسلام تستدعي إصدار مجلّة إنجليزية خاصّة بالأبحاث الإسلامية ودرس أفكار المسلمين وعلاقاتهم بالكنيسة والخطّة التي ينبغي انتهاجها مع المسلمين. وإذا كانت الكنائس المسيحية تحاول التحكّك بالإسلام، فيجب علينا قبل كلّ شيء أن نعرف مركز الإسلام... دخلنا بعد ذلك (يضيف زويمر) بعد مؤتمر القاهرة في دور جديد ظهرت فيه أهمّية تنصير المسلمين، وشعر زعماء التبشير بأنّ الكنيسة لا بدّ لها من سبر غور المسألة الإسلامية، وأن تحسن العناية بتربية المبشرين وتتوقّع خيرا من أعمالهم. ومهمّة تنصير المسلمين تقضي بإيجاد ميدان مشترك للعمل تتظافر فيه الأفكار والأبحاث والمجهودات (17).

فالدّعوة إلى تشويه المعتقد الإسلامي صريحة والرّغبة في تكثيف الجهود من أجل ضرب الإسلام ومقوّماته وتجريده من تراثه وحضارته ولغته أمر لا جدال في. وهو ما نهض لتطبيقه عدد لا يحصى من الباحثين والكتّاب من دول أوروبا كلّها. صحيح أنّ التماس الأعذار من شيمة العالم الحقّ. فإذا سهى أو نسي، لم يؤخذ عليه سهوه أو نسيانه، ولكنّ أمر ماك دونالد فيه نيّة صريحة للنيل من الإسلام والمسلمين.

يتبع...

الإحالات

1 – المستشرقون : 136/3

2 – المرجع نفسه : 137/3

3 – ينظر دائرة المعارف الإسلامية : 558/2

4 – الحقّ الذي يقود إلى الحياة الأبدية : ص 17

5 – ينظر سفر التكوين – الإصحاح الأوّل

6 – ينظر تاج العروس : 374/9

7 – ينظر دائرة المعارف الإسلامية : 558/2

8 – ينظر العرب قبل الإسلام : د. جواد عليّ 5/6

9 – ينظر الأصنام لبن الكلبي : ص 27 وما بعدها

10 – ينظر مجمع البيان في تفسير القرآن :

11 ينظر تاريخ العرب قبل الإسلام : 253/6

12 – L'Islam : R. Kalisky – p. 36

13 – Dictionnaire des antiquités chrétiennes : L. Hachette – Pari 1865

14 – ينظر الاشتقاق : 540/2

15 – دائرة المعارف الإسلامية 558/2 وما بعدها.

16 – المصدر نفسه : 564/2 وما بعدها.

17 – الغارة على العالم الإسلامي : ص 69-70